ســـــــــيـلـيـكـون

سألني نادٍ ثقافي عريق في لبنان أن أقدِّم له اقتراحاتي لمشروعاته الثقافية التي يُقيمها خريفَ كلِّ عام. وكان أحدُ مبعوثيه قد حدّثني عن خطة النادي لإقامة ندواتٍ، ومسابقاتٍ، ومعارضَ، وغيرِ ذلك.

طلبتُ منه مهْلةً للتفكير. «نريد شيئًا مميّزًا هذه السنةَ،» قلتُ له. بعد أيّام اتّصلتُ به. جاءني وسألني عن اقتراحاتي. «مسابقة للقراءة،» قلت.

«للقراءة؟» سأل مستغربًا، «وكيف ذلك؟»

أمرٌ بسيطٌ، أجبتُ. تُعْلنون عن جائزةٍ لمن يقدِّم أفضلَ الإجابات عن أسئلةٍ تتعلّق بجنسٍ أدبيٍّ معيّن. لِنَقُل الرواية العربية. تختارون خمسَ عشرةَ رواية، مثلاً، وتوزّعون نسخًا منها على المكتبات العامّة والنوادي الثقافية قبل شهور من موعد المسابقة، ثم تكلِّفون لجنةً مصغّرةً من النقّاد وَضْعَ أسئلة تتناول الحكايةَ واللغةَ والأسلوبَ والشخصيات في تلك الروايات. فيجيب المشاركون، الذين عليهم ألاّ يتجاوزوا عمرًا معيّنًا (خمسةً وعشرين عامًا مثلاً)، عن هذه الأسئلة، ويتوقّف منحُ الجائزة على معلومات المشارك ولغته وأسلوبه.

سَكَتَ ضيفي، ثم سأل عن الهدف من هذه الورشة الكبيرة.

الهدف هو القراءة، أجبتُه. مشكلتُنا هي قلّةُ القراءة. وهذه مشكلة ثقافية وسياسية واجتماعية. السلطة لا تحثّ على القراءة. الأحزاب تكتفي بأدبيّاتها وبكُتُب مؤسِّسيها أو منظِّريها. المدارس لا تَنْصح الفتياتِ والفتيانَ إلاّ بقراءة نوعٍ معيّن يَبْتعد عن الجنس و«الشذوذ» ونقد الدين والسياسة والحرب... أيْ يَبْتعد عن كلّ شيء إلاّ الطبيعة والقرية والبيئة وحُبّ الوالديْن. أما وسائل الإعلام فتتوهّم أنّ البرامج الثقافية تَنْحصر في مقابلات مع مفكِّرين، أو في الـ«توك شوز،» أو في أحوال السياسة الحالية؛ وإذا صادفَ أن قامت ببرامج ثقافية فإنّها تَدْفشها إلى ما بعد العاشرة ليلاً، على أن يُعاد بثُّها في اليوم التالي بعد منتصف الليل بساعتيْن، أيْ بالتزامن مع أفلام البورنو في لبنان. وبين سيّد ياسين أو سماح إدريس من جهة، و«بزاز» لوسي أو ساندي، عليكَ أن تختار... ولا أظنُّكَ ستَحْتار! (بالمناسبة، يقول الزّبيدي في تاج العروس: «والبِزُّ، بالْكَسْرِ، ثديُ الإنسان؛ هكذا يستعملونه؛ ولا أدري كيف ذلك.»)

لم يَظْهر أنّ ضيفي اقتنع. كرَّرتُ: مشكلتنا ليست في الكتابة يا عزيزي. إنّها في القراءة. بعرْضِكُم، أَوْقفوا مسابقات القصة والقصيدة للفتيات والفتيان والشابّات والشبّان؛ فما يقدِّمه هؤلاء ـ بشكل عامّ لكي لا نَظْلم الجميعَ ـ ضعيفٌ لأنّه لا يَسْتند إلى ما يكفي من القراءة. ولهذا تَنْفَزِر خزائنُ دُور النشر وجواريرُ المجلات الثقافية (وهي دُورٌ ومجلاّتٌ تتناقص أصلاً) بمئات المخطوطات والمواد النشرية الضعيفة، لأنّ أصحابها توهّموا أنّ رغبتَهم في الكتابة تساوي... الكتابةَ نفسَها!

وعَدَني ضيفي بالعودة إلى اللجنة الإدارية في ناديه. أخرجتُ أسلحتي الإضافيةَ قبل أن يَرْحل. أتدري، قلتُ، ما سيَحْدثُ للمئات من الشبّان اللبنانيين والشابّات اللبنانيات (ولآلافِ العرب إنْ عُمِّمتْ هذه التجربة) بعد قراءة ميرامار، وتلك الرائحة، والسؤال، ورجال في الشمس، وموسم الهجرة إلى الشمال، والزيني بركات، والخندق الغميق،

(التتمة ص ٩٦)

سماح إدريس

تتـمـة الافـتــتـاحـيــة ص ١

ســــــــيـلـيـكـون

ورحلة غاندي الصغير، ومدن الملح، والوباء، وبقايا صور، واللاّز، والسفينة، و... ؟ ستَنْفتح أمامَهم عوالمُ جديدةٌ غير الانتقال من بارٍ إلى بارٍ، ومن سيّارة إلى سيّارة، ومن شيخ إلى شيخ، ومن صالونِ حلاقةٍ إلى صالون حلاقةٍ آخر. وسيتعلّمون حُبَّ القراءة، وسيَشْترون الكتب. وبذلك، قلتُ ضاحكًا، سيساعدون دُورَنا ومجلاتِنا ونوادينَا الثقافية على البقاء!

عاد ضيفي بعد أيام. لقد خَذَلَهُ ناديه لأنّ فكرتي «صعبة ومُكلفة.» حزنتُ. الآن سنعود إلى الندوات التقليدية التي لا تأتي إلاّ بالجمهور نفسه دائمًا. صرتُ أَعْرفهم واحداً واحداً. حين أُحاضِر، أراهم. أَعْرِف متى يهزّون رؤوسَهم استحسانًا، ومتى يهزّونها استهجانًا، ومتى يَشْعرون بالمَلل، ومتى يريدون الذهابَ إلى الحمّام، ومتى يَسْتخدمون هواتفَهم الخَلَويّة لأغراض «مهمّة.» وقلتُ لنفسي إنّنا سنعود إلى تعليق الأوسمة (وأنا، بالمناسبة، لستُ ضدّ تعليق الأوسمة بالمطلق؛ ولكنْ ما معنى أن يُكرَّم كريم مروّة مثلاً وتُغلق مجلةُ الطريق؟!).

لِمَنْ نكتب يا ربّي؟ سؤالٌ قديمٌ جديد. صِرْنا نَكْتب للصراصير والجرذان والعتّ، يا جماعة. مستودعاتُنا المليئةُ بكتب الحداثة، وما قبلها، وما بعدها، كلُّها باتت عَلَفًا لهذه الحيوانات. صَحّتان على قلبها. على الأقلّ هناك مَنْ يهتمّ بالكتب! أما نحن، أحفادَ المتنبّي، فنواصل تأكيدَ مقولةِ المرحومة غولدا مائير: «إنّ العرب شعبٌ لا يقرأ.»

سأروي لكم هذه الحادثة الحقيقية. سألتُ أحدَ الموزِّعين المعروفين أن يَقْترح عليّ طريقةً لنبيع مجلةَ الآداب أكثر. قال إنّ ذلك مستحيل؛ فما دمتَ في مجلتك يا دكتور لا تتحدّث عَمَّنْ «فَتَحَ» مَنْ، ومَنْ «قَطَّبَ» مَنْ، ومَن استَخْدمت السيليكون لتكبِّر بزَّيْها، فلن تبيع أكثر. ثم اقترحَ عليّ أن أُصْدر مجلةً أخرى، للتفتيح والتقطيب والتشليح والتكبير، تُغطّي بأرباحها المضمونة خسارةَ الآداب.

هذا تبييضُ أموالٍ، قلت. يعني تريدني أن أُقيمَ مشروعًا ثقافيًا بأموالِ مشروعٍ... نقيضٍ للثقافة؟ تُريدني أن أروِّج الثقافةَ العربيةَ والعروبةَ الجديدة والأدبَ الجادّ واليسارَ الجديد... بأخبار «الفضائح» الجنسية التي نتلذّذ بالحديث عنها للتنفيس عن مكبوتاتنا؟

أنا نصحتُكَ يا دكتور، قال صديقي. شَغْلتكُم صعبة.

فكّرتُ بالسيليكون الذي تَكْتب المجلاتُ «الفنيةُ» عنه كثيراً. نَعَم، السيليكون: إنّه يضخِّم البزّ... وقد يساعد الثقافةَ إذا أخذتُ بنصيحة صديقي الموزِّع.

فُولغير أنا؟

ربّما. ولكنْ مِنْ دون قارئ، ومِنْ دون دولةٍ أو أحزابٍ أو وسائلِ إعلامٍ تشجِّع القراءة، على أيدينا أن تكون... بزنّار السيليكون.

أيكون السيليكون دواءً للثقافة... ضدّ الصراصير والجرذان والعتّ؟

أيّةُ آخرة!

تُرى، حين أَمَرَ اللّهُ نبيَّه الكريم بأن يقرأ، هل كان يَسْتشرف الفاجعةَ العربيةَ اليوم؟

س. إ.
بيروت